ولكن احيانا كثيرة بعنف بالغ ، ضد الرأسماليين الكبار « في الوطن الام » (ايمانيويل، ص ٣٩).

يحاول المستعمرون الانفصال عن الوطن الام واقامة نظامهم التفوقي الخاص الذي تكون سمته المميزة الاضطهاد الشديد للسكان الوطنيين . وروديسيا هي اخر مثل على هذه الظاهرة . وقد أعلن الجنرال الفرنسي سالان ، الذي قاد انصار « جزائر فرنسية » ، من فرنسيين جزائريين يسمون Pieds Noirs ، ومنظمة الجيش الفرنسي السري ، « خلال مقابلة في راديو لوكسمبورغ ان نوع الوجود الفرنسي في الجزائر الذي كان في ذهنه في ذلك الحين كان (مثل روديسيا ، ولكن دون تفرقة عنصرية) » (ايمانيويل ص ٤٨) . وفي حين ان الصراع العنيف بين المستوطنين الجنوب افريقيين وبريطانيا كان اقتصاديا في الجوهر ، فقد كانت له صلة ايضا بالسياسة البريطانية المتعلقة بالسكان الوطنيين . وعندما فاز البيض المحليون اخيرا بالاستقلال والسيطرة على الدولة ، فرضوا احدى البنى الاكثر جورا واستبدادا في التاريخ : التفرقة العنصرية : « في ما يتعلق باسرائيل ، كثيرا ما ينسى الناس انه اذا كان هذا البلد يمثل رأس حربة للامبريالية في السياق الدولي الراهن المعين من العداء بين الكتلتين الكبريين ، فليس هذا الا نتيجة ظروف خاصة . فطبيعته الحقيقية هي ان يكون كتلة من المستوطنين « البيض » الصغار تنتشر اكثر فاكثر لتستعمر منطقة متخلفة . وهذا هو الذي يجعل نزاعهم مع شعوب المنطقة قاسيا الى هذا الحد ، حتى حيث تعيش تلك الشعوب في ظل انظمة موالية للغرب هي نفسها تابعة للامبريالية ... ورغم تحالف اسرائيل مع الامبريالية الاميركية ... فهي دولة استعمارية انفصالية . وقد كان اساسها موضع صراع طويل ودموي مع انكلترا التي لعبت دور البلد الام الامبريالي » (ايمانيويل ، ص ٤٧ ، هذا هو الصراع الذي شجع الصهاينة على وصف اسرائيل بانها مناهضة للامبريالية ، والصهيونية بانها حركة تحرير يهودية) .

لدى انفصال المستعمرين ، او استقلالهم ، تكون الصفة المميزة المحورية لانظمة الاستعمار الاستيطاني هي علاقتها بالسكان الوطنيين والارض. فمن الناحية السياسية ، يؤسس المستعمرون الاوروبيون ما يسميه فان دن برغ « ديموقراطية هيرنفولك » ، ثنائية سياسية مع ديموقراطية برلمانية للمستعمرين المستوطنين ونظام استعماري للسكان الوطنيين (انظر ب.ل. فان دن برغ ، ١٩٦٥ ، ايضا ب. ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧). وهذا « نظام برلماني تقصر فيه ممارسة السلطة وحق الاقتراع ، في الواقع ، واحيانا كثيرة بموجب القوانين ، على الجماعة المسيطرة » (فان دن برغ ، ١٩٦٧ ، ص ٢٩) . وباختصار ، فان المستعمرين يحكمون انفسهم حكما ديموقراطيا ويفرضون استبدادهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي على السكان الوطنيين .

اكتساب الاراضي ، الاستيطان الاستعماري يحتاج الى الاراضي . وهكذا ينفجر عداء فوري مع السكان الوطنيين عندما يأخذ المستعمرون الارض (ينتزعونها او حتى يشترونها) . ولضمان الحصول على المستعمرة ، يقتضي الامر المزيد من المهاجرين، وهكذا يزاد ضغط السكان والارض على السكان الوطنيين . وتتبع ذلك مقاومة السكان الوطنيين . ولكن يتم اطلاق عملية ديناميكية : توسعية استعمارية ، هجرة ، وطرد او اخضاع وفصل عنصري للسكان الوطنيين . وتعبر هذه العملية الديناميكية عن نفسها في سلسلة من المعارك والحروب التي تبلغ اوجها في السيطرة على الارض، وطرد السكان الوطنيين واخضاعهم . واحيانا تصير نزاعات كهذه ابادة جماعية للشعب . في اميركا الشمالية تسمى هذه الحروب الحروب الهندية ، وفي جنوب افريقيا « حروب الكفير » «Kaffir Wars» وفي الشرق الاوسط النزاع العربي — الاسرائيلي (ولا ننكر هنا ان عوامل اخرى دخلت الصورة هنا) .

تفاصيل هذه العملية الديناميكية تختلف في حالات الاستعمار الاستيطاني المختلفة ، لكن الجوهر والنتاج لا يتغيران . ففي جنوب افريقيا تم اكتساب الاراضي بقوة تدعمها الدولة الامبريالية (واحيانا تتجاهلها) . وبالفعل ، بدءا من القرن التاسع عشر ، ادى النزاع بين المصالح الامبريالية البريطانية وجالية المستوطنين الافريكانيين الى المزيد من التوسعية الواسعة النطاق (انظر روايات عن هذا النزاع في ل. ماركاند ، ١٩٦٦ ، و. فاتشر